# إرث الإستعمار الفرنسي والثورة التحريرية

# على الحياة السياسيّة في الجزائر المُستَقِلّة (1962 – 1978)

**د . ناجية حمدي** (*)

***ملخص***

في هذه الورقة البحثية ، حول إرث الاستعمار والثورة على الحياة السياسيّة الجزائرية . يَبدُو من الضروري إجراء تقييم للفترة الاستعمارية ، لأنّ هذه الفترة التاريخية تَبدُو في غاية الأهمية ، وحَاضرَة ولا تُمحَى . من هنا تذهب هذه الدراسة إلى معالجة الإشكالية التالية : هل يُمكن الربط أيضا بين الوسائل التي حَقّقت الاستقلال – ثورة عنيفة في الجزائر مُقارنة مع حالات أخرى أكثر سلمية – والمُمَارسة السياسية في مرحلة ما بعد الاستقلال؟ ولمُحاولة الإجابة عن هذه الإشكالية سوف تعتمد هذه الورقة البحثية على منهجية تركيبية مفادها : أنّه بالنظر إلى أنّ الجزائر تَعرّضَت لكلا من الفَرنَسة العالية والتَعريب الشديد ، ينبغي أن يكون تأثير اللغة والثقافة على المَسَار السياسي للجزائر واضح جدّا . أكثر من ذلك ، شَهدَت الجزائر جميع تَجارب التَحوُّل الاجتماعي كما لُوحظَت في مناطق أخرى من العالم الثالث ، وهي النُمو السكاني (الديموغرافي) ، الهجرة إلى المدن ، التعليم العام ، ويَجب أن تُؤخَذ أيضا هذه الحقائق بعين الاعتبار في أيّ تحليل سياسي . وأخيرا ، يُلاَحَظ سيطرة الاقتصاد "الريعي" في الجزائر . وكان لهذا الواقع الاقتصادي تأثير كبير على الحياة السياسية الجزائرية . وستَكُون مُهمة المُلاحظ في البداية إذاً هو تَوضيح تَعقيدَات تاريخ الجزائر على الأقل في شَكل مَفاهيمي ، ومن ثَمّ تقييم الأسباب التي أدَّت إلى خَيَارَات رجال السياسة الجزائريين .

**الكلمات المفتاحية:** الإستعمار الفرنسي ، الثورة التحريرية ، النظام السياسي الجزائري وهواري بومدين .

*) مُحاضرة بكلية الحقوق والعلوم السياسة ، جامعة مولود معمري ، **تيزي وزو** – الجزائر .

## مقدمة

عندما يقول الجزائريين بأنّ بلادهم تمثل حالة خاصة، فإنّهم عادة ما يضعون في الإعتبار شيئين: خلافاً لجميع الدول العربية الأخرى، عانت الجزائر من استعمار حاد لمدة 132عاماً؛ وعلى عكس أيّ دولة أخرى في الشرق الأوسط، اضطرّت إلى خوض غمار حرب استقلال طويلة ودموية، لأكثر من سبع سنوات، وراح ضحيتها مئات الآلاف من الأرواح، وربّما يصل إلى مليون. مُضاعفات هذا الإرث الاستعماري والثوري، امتدت حتى لجيل ما بعد الاستقلال، ولا يزال يَحْتم على الحياة السياسية في الجزائر. أمّا اليوم، ومع ذلك، فإن نسبة السكان الذين احتفظوا بذاكرة حيّة لتلك الفترة قد انخفضت بشكل ملحوظ. وهناك فجوة كبيرة بين، من جهة، الأجيال التي تشكّلت من قبل تجربة الهيمنة الفرنسية والنضال من أجل الحرّية، ومن جهة ثانية، أولئك الذين يتناولون الاستقلال على أنّه شيء طبيعي ويعتقدون بأن ليس لديهم أيّ دَين تُجاه الجيل الأول من الوطنيين.

والغرض من هذه الدراسة هو مُحاولة فهم ما إذا كان هناك رابط بين الوسائل التي حققت الإستقلال والممارسات السياسيّة التي تولّدت في مرحلة ما بعد الإستقلال، خاصّة في عهد الرئيس الراحل "هواري بومدين"؟ وتفترض الدراسة وُجود هذا الرابط بينهما. وسوف تُحاول اختبار هذا الافتراض بالاعتماد على منهجية علمية مفادها أنّه: بالنظر إلى أنّ الجزائر تعرّضت لكلا من الفرنسة العالية والتعريب الشديد، ينبغي أن يكون تأثير اللغة والثقافة على المسار السياسي للجزائر واضح جدّا. أكثر من ذلك، شهدت الجزائر جميع تجارب التحوّل الإجتماعي كما لوحظت في مناطق أخرى من العالم الثالث، وهي النّمو السكاني (الديموغرافي)، الهجرة إلى المدن، التعليم العام، ويجب أن تؤخذ أيضا هذه الحقائق بعين الإعتبار في أيّ تحليل سياسي. وأخيراً، يُلاحظ سيطرة الإقتصاد "الريعي" في الجزائر، بواسطته تستفيد الدولة من تدفّقات مالية كبيرة جراء بيع البترول والغاز؛ تُوزع هذه العائدات بطريقة تُولد وتُشجع على فساد واسع، وفي الوقت نفسه تُثبط الإستثمار بحكمة في القطاعات الإنتاجية. وكان لهذا الواقع الإقتصادي تأثير كبير على الحياة السياسية الجزائرية. وستكون مُهمة الملاحظ في البداية إذاً هو توضيح تعقيدات تاريخ الجزائر على الأقل في شكل مفاهيمي، ومن ثمّ تقييم الأسباب التي أدّت إلى خيارات رجال السياسة الجزائريين.

### أولا. السيطرة الفرنسية

بدأت السيطرة الإستعمارية الفرنسية العام 1830، من دون مشروع كبير للاحتلال، ولكن مع هذا المفهوم للمهمة الحضارية التوسعية والتأكيد على حقها التي ميّزت الإتصالات بين أوروبا من جهة والبلدان الأفريقية والشرق أوسطية من جهة أخرى، في عصر "استعمار دون مشكلة الضمير". تحتاج عدّة نقاط لإبرازها عن الإحتلال الفرنسي

للجزائر. أولاً، كانت الجزائر قريباً من "مُستعمرة إسكان"، ممّا يعني أنّه تمّ تشجيع الكثير من الأوروبيين للاستقرار في الجزائر ليُصبحُوا مُزارعين، تُجار أو إداريين. ومن بداية القرن العشرين، عَملَت شركة أوروبية مُتسقّة تماماً مع جُذُور هويتها الخاصة. وهي جماعة الأقدام السوداء، بما لها من تأثير في باريس إلى اعتبار الجزائر جُزءاً من فرنسا الأم[1]. وتختلف الجزائر كثيرا عن الهند، حيث يَحكُم البريطانيون عن طريق مجموعة صغيرة من نُخبهم الإدارية الحضرية، بمُعاونة حلفاء لهم يتم اختيارهم من "السكان الأصليون" بينما بَقيّ جُزء كبير من المجتمع الهندي على الحياد. وكانت النتائج المُترتبة عن النظام الاستعماري الذي كان مَفرُوضا في الجزائر عديدة. أولاً، كانت هناك مُقاومة عنيفة ومُمتدة من العام 1830 إلى 1847، بَعدَها هُزم الأمير "عبد القادر" ونُفيّ. رحيل هذا الرجل الاستثنائي استنزَف معه آلاف الرجال المُؤلفين للنخبة التقليدية، وكان ذلك بمثابة ضَربة رهيبة للمجتمع الجزائري[2]. انفجَرت انتفاضات أخرى، ولكن مع نهاية القرن التاسع عشر تمّ تدمير المجتمع الجزائري وتحَويله إلى "غُبار بشري"، على حدّ تعبير أحد الإداريين الفرنسيين[3]. واضطُر الزُعماء التقليديين للمُغادَرة، أو أنّهم هُزمُوا وأذلوا. وتمّ استبدَالهم في جميع المستويات تقريباً من قبل الأوروبيين. وبالإضافة إلى ذلك، تمّ طَرد الجزائريين من أفضل الأراضي، التي وُضعَت تحت تصرُف الأوروبيين في وقت لاحق.

في هذا النَموذج للتوسُع الاستعماري، لم تُولد الأمة الجزائرية من المُطالَبات بالحقوق الآتية من النخبة التقليدية، كما كان الحال في كثير من الأحيان في أماكن أخرى. صَحيح أنّه في سنوات الأربعينات، كان السكان الأصليون مُقسّمين، مَقهُورين وسلبيين، ما جَعل العديد يَعتقدون أنّه لا وُجُود للأمة الجزائرية.

من الأوائل الذين يُمكن ملاحظة وَعيهم الوطني هم العمال الجزائريين في فرنسا، وقت الحرب العالمية الأولى. هؤلاء كانوا على اتصال مع المجتمع الفرنسي المُعاصر، بما في ذلك المنظمات النقابية؛ والذين انتَظمُوا على الفَور للمُطالبة بحقوقهم. ومن أبرز القادة الأوائل للقومية الجزائرية كان "مصالي الحاج"، الذي نادَى بقومية بَمنحَى بروليتاري، ومُتناغمَة مع الإسلام. اتخَذَت القومية الجزائرية، منذ البداية، مُنعطَفاً شعبويا، وجَمعت بين الرموز الوطنية ومواضيع مُتأتيّة من الشرق الأوسط، من قبل النهضة العربية والإصلاح الديني (الإسلامي). في الأصل، القومية الجزائرية مُستوحَاة من الشرق والغرب معاً. لكن لا يُمكن أن تَترَسّخ في الجزائر إلاّ بعد مُرور فترة زمنية مُعينة، والمُدهش أن ظُهورها البطيء في بداياتها كان يُخفي قوّة من شأنها أن تُصبح في غاية الأهمية مُستقبلاً.

وإذا كان "مصالي" على رأس حركة عمالية شعبوية مُحرضة ضد الحكومة الفرنسية، فإنّه لا تزال تيارات فكرية وُجدت في نهاية سنوات الثلاثينات، ضمّ واحداً منها بعض علماء الدين الذين نادُوا بالإصلاح الديني (الإسلامي) كوسيلة للدفاع ضد السياسة الفرنسية الاستيعابيّة. لعبت جمعية العلماء المسلمين، بقيادة "عبد الحميد بن باديس" دورا هاما في الحفاظ على سلامة الهوية العربية والإسلامية للجزائر في مُواجهة جُهود التشويه. لقد كانت حركة اجتماعية وثقافية أكثر منها سياسية، ومع ذلك لعبت دورا في تشكيل الحركة الوطنية.

وهناك اتّجاه آخر، نَمُوذَجي نسبياً لتجارب استعمارية أخرى، تُجسِّدُه النخبة الفكرية التي تشكّلت حديثا في الجزائر. كان أعضاء هذه المجموعة في كثير من الأحيان فخُورين بنجاحهم في المدارس الفرنسية، يُجيدُون اللغة الفرنسية، من خريجي المدارس التي تُقدم تدريبا مهنيا، وغير راضين على عدم منْحِهم نفس الحقوق التي يتمتّع بها الفرنسي. وكان المُمثل الأكثر نَمُوذَجية لهذه الحركة "فرحات عباس"، الذي تابع تكويناً في الصيدلة، عبّر بوضُوح مُطالبته بحقوق مُتساوية في سنوات الثلاثينات، جَالَ في فرنسا لطلب منْح الحق في الجنسية الفرنسية للمسلمين، بحُجّة عدم وجُود الأمة الجزائرية (وجْهَة نظر رُفضت بشدّة من قبل "بن باديس"). بعد عشرين عاماً، أصبح "عباس" عُضوا مُمثلا للحركة الوطنية الجزائرية، وفيما بعد أوّل رئيس للحكومة المُؤقتة الجزائرية. ولكن هؤلاء الليبراليون كانت فُرصَتُهُم في النجاح ضئيلة، لأنّهم كانوا مُعتدلين جدّاً وقليلي العدد جدّاً. في الجزائر، لم يكُن هناك مجموعة مُماثلة لحزب المؤتمر في الهند، الذي كان يتألّف من خُبراء قانونيين اندمجُوا إلى حدّ بعيد في التقاليد السياسيّة للمُستعمر. كانت الأمة الجزائرية من طبيعة أكثر خُشونة وشكّلت في الإنتفاضات العنيفة.

أمّا التيار السياسي الآخر والأصغر في الجزائر فكان الحزب الشيوعي، اللائكي (العلماني) في أفكاره، ودعا لصراع الطبقات. وكانت جاذبيّته للجماهير ضعيفة، ولكن مع ذلك حظيَّ بإنضمام بعض المُثقفين إليه. كان يدعُو بحماس إلى الإنفصال عن فرنسا. بالنسبة للشيوعيين، كان السؤال الحقيقي يتمحْور حول الإمبريالية وليس الإستعمارية. وعلى الرغم من صغر حجمه، كان هذا الحزب واحدا من الأماكن القليلة حيث المسلمين وغير المسلمين بإمكانهم العمل معاً وتحقيق الأهداف السياسيّة المُشتركة.

ولو حصلت الجزائر على استقلالها بأعجُوبة في سنوات الثلاثينات، فإنّه سيستقر على الأرجح شكل من أشكال المُمارسة الديمقراطية في وسطها. حيث تمّ تكوين العديد من التيارات السياسية. أهمها بلا شك، حزب الشعب الجزائري ل "مصالي الحاج"، وكان على وشك أن يحدث فيه انقسام بين الأجيال. فلا يزال "مصالي" يُمثل الوطنية الشعبوية مُلوّنة بالإسلام، في حين كان الجيل الشاب أكثر عصرية ولائكية (علمانية) في مفهومه للوطنية. وكان من المُمكن أن يحظى هذا الجيل الشاب بدعم. التيارات السياسية الأخرى التي نجد

فيها "عباس"، "بن باديس" والشيوعيين. حتى المجتمع الأمازيغي، وخاصة في منطقة القبائل، قد تشكّل كذلك كطرف معهم.

يتألّف السواد الأعظم من الجزائريين في سنوات الثلاثينات من الفلاحين الأميين. وإذا ما أمكن تحقيق الاستقلال آنذاك، فإنّ السياسة ستظلّ شأناً نخبوياً، حيث تُدرك كل مجموعة أنّها في حاجة إلى قاعدة شعبية إنْ هي أرادت الفوز في الانتخابات. ومع ذلك، لم تأمل أيّ مجموعة في السيطرة لوحدها على الحياة السياسية، ما اضطرّها إلى تشكيل تحالفات. أمور كان يُمكن أن تعمل بشكل جيّد، ولكن ذلك لم يحدث[4]. والسبب بسيط: لم يكن الأوروبيون على استعداد للتنازل عن الجزائر دون قتال. لأنّهم تبصّروا بأنّه لا يُمكنهم العيش إلاّ كأقلية في الدولة الجزائرية الجديدة، وهو مثل ما قام به في وقت لاحق بيض جنوب أفريقيا تجاه السود. كما لم تكن الظروف مواتية لتُنجح ببساطة مثل هذا الاتفاق بين المستوطنين والوطنيين. وهكذا، فإنّ الأحزاب الجزائرية المعترف بها، والتي تمسّكت بفكرة أنّ حقوقها يُمكن أن تنالها عن طريق الوسائل السلمية، انتهت بفقدان مصداقيتها في أعين جيل ما بعد الحرب: هذا الجيل كان مُقتنعاً بأنّ فرنسا لن تسمع إلاّ لحجّة القوّة، وليس من خلال الالتماسات والمناشدات[5].

وهكذا، يُعتبر الشباب المنحدر من الجيل الجديد أكثر راديكالية وتعتقد أن "عباس"، "مصالي الحاج" وحتى أولئك الذين يريدون منافسة قياداتهم كانوا مدفوعين فقط من قبل المصالح الخاصة لمنظماتهم، وبالتالي كانوا غير قادرين على التمرّد ضد المستعمر.

كما لم تتح بين أيدي هؤلاء الشباب أياً من أدوات السياسة. الانتخابات، المنظمات الجماهيرية، النقابات، الدعاية، التي يبدو أنّ لها قيمة. وفي أذهان أولئك الذين فجروا الثورة، السياسة فشلت، والانتخابات كانت مزوّرة، والأحزاب كانت جديرة بالاحتقار والنظام الاستعماري لن يمنح أبداً الجزائريين حقوقهم. وبغض النظر عن التيارات التي يمثلونها، كان السياسيون بالكاد أكثر احتراماً من "بني وي وي"، وهم الأهالي (الأندجان) المنصاعين الذين تمّ تجنيدهم من قبل الفرنسيين لأجل وظائف وضيعة.

### ثانيا، الثورة المسلحة

وفقاً لوجهة النظر هذه للأمور، فإنّ الفعل المباشر فقط، استخدام القوّة، يُمكن أن يُنهي الإحتلال الفرنسي للبلاد. لذلك فجرت الثورة في 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1954، ليس فقط ضد فرنسا، ولكن ضدّ المؤسسات السياسية التي نُصّبت للجزائريين على طول كل الأجيال السابقة. إنّ الثورة الجزائرية، في الأصل، قامت ضدّ السياسة وضد الأحزاب. ووفيّة للروح الشعبويّة في جميع أنحاء العالم، هؤلاء المقاتلين المتطوعين الذين يريدون تحرير البلاد رأوا أنفسهم كما الأبطال الذين

لديهم إستعداد للتضحية بكل شيء من أجل الشعب. كان يُنظَر إلى مُمَثلي الأحزاب كأناس تُوَجهُهُم مصالحهم وكعناصر للتفرقة؛ إنّهم يُضعفُون الإرادة الجماعية ويَعرضُون مسرحية بدلاً عن الفرنسيين، الذين عَرَفُوا كيفية تطبيق سياسة "فرق تَسُد". لقد كان يَحْدُوهُم الأمل في أن الثورة ستُؤدي لتوحيد الجماهير وإحداث قطيعة مع الماضي. وهذا ما حَدَثَ بشكل عام. لكنها ضَحّت كذلك بالمُيول الديمقراطية الوليدة في الحياة السياسية الجزائرية لصالح الشعبويّة الراديكالية التي كان يُنظَر إليها، في وقت لاحق، على أنّها مَسئُولة عن العديد من المشاكل في البلاد[6].

إستَمرّت الثورة الجزائرية، أو حرب الإستقلال، من نوفمبر 1954 إلى إعلان الإستقلال في يوليو/تموز 1962. في البداية، بَدأت الحرب من قبل حَفنَة من الرجال تحت اسم جبهة التحرير الوطني (FLN). مُعظَمُهُم كانوا من أصُول مُتواضعة. لم يَكن هناك صَدى لدعوتهم للنضال من أجل الاستقلال. لكن مع مُرور الوقت، انْضَمّت مُعظم التيارات السياسية الجزائرية لجبهة التحرير الوطني، باستثناء "مصالي" الذي كان رَفضُه مُدَوياً، والذي لم يَشأ الانضمام لهؤلاء الرجال الشباب الذين تَحَدّوا سُلطته؛ هؤلاء بدورهم رَفَضُوا أن يَفسَحُوا له الطريق وتَحَمّل أساليبه الأوتوقراطية. وهكذا، كانت صُورة الوطنية الجزائرية المعاصرة، في زمن الثورة، تقريبا على الرّف. وأعتُبر "مصالي" رجل خائن، في حين تَمّ القضاء على أنصاره بشكل منهجي. حَاوَل الفرنسيون دون جَدوى استغلال هذه الانقسامات، ولكن خَرَجَت جبهة التحرير الوطني الوحيدة الفائزة في هذه الصراعات. والعديد من المَصاليين لم يُسامِحْ جبهة التحرير الوطني على ذلك. لا أحد يَعرف على وجه اليقين النتائج المَأساوية لهذه الحرب الداخلية التي يُتَجَنّب ذكرُها، على الرغم من الحديث عن عدد كبير من الضحايا. يُمكن القول أنّ الوَيلاَت الناجمة عن مثل هذا الصراع الدامي رَهيبة، في ثقافة حيث يَرتبط الانتقام لقضايا شَرف العائلة. ومن بين أولئك الذين إنْضَوُوا تحت الراية الإسلامية لمُعارضة جبهة التحرير الوطني، يَحدُث أن تجد أحفَاد المَصاليين المُقصيين من قبل الجناح الوطني المُنتَصِر. وغَدَا انتقام الأجيال تَخَصُص طَاغِي على السياسة الجزائرية، كما لا تَزَال تُظهرُه المَجازر الرهيبة المُرتَكبة في حق المَدنيين خلال الفترة 1996-1998.

إنّ جبهة التحرير الوطني، التي لم تَكُن تَثِق ب "مصالي" ولا ب "عِبَادَة شَخصيّته"، لم يَكن يَحكُمها رجل واحد. لم يَكن هناك "نيلسون مانديلا" (Nelson Mandela)، "ماو تسي تونغ" (Mao Tse Toung) أو "لينين" (Lénine) في الثورة الجزائرية. وبَدَلاً من ذلك كان هناك اللجَان، الزُمَر والعَشَائِر. وكانت قيادة الكَتيبَة مُجَرّد شعار، غالبا ما هو مُلَغّم بواقع التنافس الشديد. والغَرض من ذلك هو جَعل جبهة التحرير الوطني تَبدُو في مَرأى الناس كجبهة مُوَحَدَة وواسعة. إستَمْسَكَ قادة ذلك الوقت بما كان يَجمعهم، وهي فكرة إستقلال الجزائر في الإطار العربي – الإسلامي. وكانت الوطنية، بَديلاً عن أيّ أيديولوجية أخرى، من ألهَم الحركة. حيث يُعثَر في صُفوف جبهة التحرير الوطني على الإشتراكيين والإسلاميين، البربر والعرب، الفلاحين والمُثقفين. وَحَدَهَا الوطنية من جَمعهم في هذا النضال من أجل قضية مُشتركة. ومن هذه المَصفُوفَة الأيديولوجية

برّز هاجس جبهة التحرير الوطني لتوحيد الشعب، وعدائها للنماذج القديمة للأحزاب السياسية وعدم الثقة تجاه فكرة وجود زعيم قوي واحد.

## ثالثاً. نحو الاستقلال

مع قُرب نهاية الكفاح من أجل الاستقلال، كان هناك العديد من مراكز القوى داخل جبهة التحرير الوطني. أولاً، كان هناك المجاهدون (المحاربون) في الداخل، برئاسة قادة النواحي العسكرية (وتُسمى الولايات). في الواقع، كانت الجزائر مُقسمة إلى ستة مناطق (نواحي) أو ولايات، وكان لكل واحدة إمرة (قيادة). ويمكن أن تكون مُشابهة للاقطاعيات، حيث كان القادة متمسكين باستقلاليتهم، وأكثرهم تغذية للمظالم ضد القادة الموجودين خارج البلد والذين لم يقدموا لهم المساعدة المطلوبة خلال تحمّلهم للضغط العسكري الرهيب من فرنسا. رأوا أنفسهم على أنهم مقاتلين حقيقيين من أجل الحرّية، وبالتالي يحق لهم مناصب مهمة في النظام الذي وُضع بعد الاستقلال.

ويتمثّل العنصر العسكري الآخر في جيش التحرير الوطني (ALN)، الذي تأسّس في حدود الجزائر مع المغرب وتونس. خضع لتدريب إحترافي، وكان يمتلك أسلحة حديثة، ولكنه في الواقع كان قليل القتال. قائده كان عقيد صارم يُدعى "هواري بومدين" (اسمه الحربي). ويعكس قادة آخرين لجبهة التحرير الوطني، تلقّى "بومدين" تكوينا كاف جدا بالعربية، بعد أن درّس في تونس والقاهرة، كما أنّه لم يكن على إستعداد لتحمّل خصومات الساسة.

وكان هناك أيضا الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA)، التي كانت بطريقة أو بأخرى الصوت الرسمي لجبهة التحرير الوطني أثناء المفاوضات مع فرنسا[7]. إستفاد العديد من سياسي الحرس القديم، مثل "عباس"، من مناصب مهمة في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية؛ وسيكون الشيء نفسه بالنسبة لعدد قليل من المثقفين وعدد من القادة الأوائل للثورة.

وأخيراً، لدينا عدد من الشخصيات البارزة التي قضت الكثير من وقت الثورة في السجون الفرنسية. وكان هؤلاء الرجال ذايعي الصيت بسبب الاهتمام الذي أولتهم إياه الصحافة عقب إلقاء القبض عليهم في العام 1956. وكان لكل واحد من هؤلاء الرجال فكراً سامياً عما ينبغي القيام به من أجل القضية الوطنية وأملوا أن تُعطى لهم مكانة في قمّة الهرم بعد الإفراج عنهم. إنّهم بالكاد تحدّثوا عن ذلك، كما أنّهم لم يكونوا مُحاطين بالأوفياء، ولكن مع ذلك، إمتلكوا هيبة رمزية كبيرة، مكّنتهم من ترجيح كفّة الصراعات الفئوية إلى جانب واحد أو آخر. هكذا كانت جبهة التحرير الوطني عشيّة الإستقلال، حركة قليلة الإنضباط، ولكن تتمتع بمكانة كبيرة في الوسط الجزائري. أعتقد، للحظة وجيزة في منتصف العام 1962، أنّ الجزائريين إعتبروا جبهة التحرير

الوطني كمُجَسيد لآمالهم . وهذه اللحظة لم تدُم سوى لوقت قصير ، لأنَّ يضع صراعات الزُمَر (العُصَب) جَعَلَت البلاد في وَضع قريب من حرب أهلية[8].

عَدَم وُجُود شخصية واحدة تَرمُز إلى نضال الجزائر ، وغياب الاتِّفاق حول الشخص الذي بإمكانه ربّما لَعِب هذا الدور ، جَعَل من جبهة التحرير الوطني التي قامت بالثورة تَبجِل أيقونتِها بنفسها . وقد إستَثمَرَت الثورة في الكاريزما لدرجة أن لا قائد يُمكنُه تلَمُسِها . وأُعطِيَ المَجد إلى "المِليُون شهيد" . وسُمِّيَت الشوارع بأسماء أشهَرِهم . ولقد أخطأ أوّل رئيس للجزائر ، وسجين سابق ، "أحمد بن بله" ، في مُحاولة منه لتشكيل مؤيّديه الخاصين ، ما أدّى إلى خَلعه من قبل جُنود مَجهُولين .

أعطَت هذه الوحدة الأسطورة ، وهذا التمجيد للشُهداء صُورة جُمُودِيّة (مُنحَرِفة) ، وبالتالي من الصعب أن تَفهم ، الجزائر في الماضي والحاضر . لكن الإصرار على الوحدة من مَخاطر الانقسام يُخفي في الواقع الفعلي تَنوّع وتَعقيد المجتمع الجزائري . يَستَحضِر النظام "الشعب" ، كما لو أنّه بأكمله لا يَتحدث إلاّ بصوت واحد . كل من لا يَقبل تَفسير النظام للإرادة الشعبيّة يُصبح خائنا باقتدار . لا يُمكن مُحاسبة النظام ، لدرجة أنّه كان يَتصَرَّف نيابة عن الشعب . تَرَكَ هذا الغَلّ الأيديولوجي مَجالا قليلا للسياسة ، مُمَثلة من قبل الجماعات الاجتماعية المُعترف بها والسّاعية لصياغة الآراء المُتضاربة ، ومن قبل المؤسسات التي من شأنها أن تلعب دور الوَساطَة ، لحلّ النزاعات بُمساعدة القواعد المَقبُولة من قبل الجميع ، عَشِيَّة الاستقلال ، وعلى الرغم من الاندفاع الوطني على نطاق واسع ، كانت الجزائر بعيدة عن كونها بلد مُتجانس ودون تَبايُنات ، نَجد فيها نُخبة صغيرة تَشَكَّلَت في المدرسة الفرنسية ، يَتواجد مُعظَمُها في المدن المتوسطة والكبيرة الهامة . وكان هناك أيضا قطاع يتكوّن من صغار التجار وصغار الموظفين . يَتألّف مُعظم الجزائريين من الفلاحين ، هناك عدد قليل من كبار مُلاك الأراضي . يُعتَبر القبائل الناطقون بالأمازيغية ، المُتمركِزون في المناطق الجبلية شرقيّ الجزائر العاصمة ، المجموعة الأكثر حَزما من بين الأقليات الإقليمية بشأن هوية مُعيّنة ، ولكن يُسَجّل بشكل عام شُعُور عال بالجهَويّة في جميع أنحاء البلاد . وبالإضافة إلى ذلك ، كان لهذه الفروق الاجتماعية مُحَدّدات سياسيّة والتي في جانب كبير منها أثارَتها سبع سنوات من حرب مُكلّفة ضد الفرنسيين . وهكذا ، فإنّ هذا المجتمع المُنقسم والمُتعدّد ، في الوقت الذي كان فيه بحَاجة مَاسّة إلى نظام سياسي شرعي ليُساعده على وَضع أهداف جديدة إلى ما بعد الاستقلال ، وبَدَلاً من ذلك يُعامَل كَهيئة مُوَحّدة من قبل قادته الذين نَصَّبُوا أنفسهم عليه .

تَشكّلت في الثورات الروسية والصينية ، قاعدة من طبقة إجتماعية واحدة لِلمُضِيّ قدما في المعركة ؛ كان هناك رابحون وخاسرون ، وكانت قواعد اللعبة واضحة بما فيه الكفاية . ولكن في الجزائر ، كل الشعب إنتَصر ، باستثناء الخَوَنَة ، وهم الحركى سيء السُمعة والذين قاتلوا إلى جانب

الفرنسيين ، وغادَرَ كثيرون منهم إلى المنفى في فرنسا . وما عدا هؤلاء الحَرْكَى ، الجميع كان يَأمَل في مُكافأة نَظير مُشاركتهم في الثورة ، وهذا ما شَكّل عِبئاً كبيرا على السلطة الجديدة .

يَتِمّ التعبير عن أسطُورَة الوحْدَة والإجْلاَل للشهداء بشكل غير مُتوقع تماماً في الساحات العامة . لا يُريد النظام الجديد ، الكَشْف عن مَدى الإنقسامات داخل جبهة التحرير الوطني خلال الثورة ، ورُفِع عدد من الشهداء إلى مَصَاف سَام عن طريق إطلاق أسمائهم على الشوارع الرئيسية لمدينة الجزائر العاصمة . قِلّة من الناس يَعرِفُون أنّ "عبان رمضان" ، الذي أُطْلِق إسمه على أحد شوارع الجزائر العاصمة ، لم يُقتَل من قبل الفرنسيين ، ولكن من قبل رِفَاقِه . كما يُمكن العُثُور في الجزائر العاصمة اليوم على شارع بإسم غَرِيمِه الرئيسي ، وهو "كريم بلقاسم" ، والذي يدَوْره قُضِيّ عليه في وقت لاحق من قبل نظام "بومدين" . إنّ التاريخ المُزَيَّف لا يَزال مَوضُوعا حساسا جدا لِيُبْحَث فيه بشكل صريح ؛ ولكن أُوجِدَ بعض الكَلْبِيّة (تهَكّم) مِمّا حَرَم جبهة التحرير الوطني الكثير من الشرعية التي حَاولت أن تَدّعِيها . لم تُرَكِز الرواية الرسمية على المَأسَاة الحقيقية للثورة الجزائرية ، وعلى الكثيرين من الجزائريين الآخرين طِيلَة كفاحهم من أجل الاستقلال .

لذا ، بَدَلاً من توحيد الشعب بعد جَلْب الاستقلال ، أصبَحَت الثورة مَصْدَراً للصراعات الشديدة داخل النخبة[9] . وكان مُعظم الجزائريين مَذعُورين لِرُؤيَة القادة الذين نَصَّبُوا أنفسهم يَتَقَاتَلُون فيما بينهم ما إن غَادر الفرنسيون البلاد . ما أَجْبَر نُزُول الكثير من أُنَاس هذا الشعب إلى الشوارع وهم يَهْتِفُون : "سَبع سَنَوَات ، بَرَكَات!" .

وقد أدّى الصراع على السلطة إلى ظُهور إئتِلاَف هَشّ من المُعارضين للحكومة المؤقتة ، التي أدارت المُفاوضات الناجحة التي أثمرت الاستقلال . أصبَح "أحمد بن بله" رئيسا بدعم من الجيش النظامي وبعض قادة الولايات . بعد وقت قصير من توليه السلطة ، إنقَلَب ضد زُملائه من الثورة ، وفَقَدَ مَحبّة قادة الولايات وسُرعان ما وَجَد نفسه في مُواجهة "بومدين" ، الذي كان يُسَيْطِر على الجيش النظامي . يوم 19 يونيو/حزيران 1965 ، خَلَعَ "بومدين" "بن بله" وبَدَأ عهد جديد[10] .

## رابعا، عَهْد بومدين

وَضَع أوّل رئيس للجزائر المُستقلة ، "أحمد بن بله" ، أسُس نظام الحكم السلطوي . ولكن خَلِيفَتُه ، العقيد "هواري بومدين" فَعّلَه . يَفتَقِر حكم "بن بله" لقاعدة مُؤَسَسِيّة لِدَعْمِه ، وقضى السنوات الثلاث في منصبه في مُنَاوَرَة فصيل ضد آخر للاحتفاظ بالسلطة . وكانت أوّل إنتخابات المجلس التأسيسي (الجمعية الوطنية) ، والتي وَفّرَت للتيارات المختلفة في المجتمع وسائل التعبير ، مَلِيئة بالوُعُود ، ولكن تَمّ إيقاف هذه التجربة التعدّدية المَحدودة بعد عام واحد فقط . ثُمّ أنشَأ "بن بله" نظام الحزب الواحد مُبيّنا له أيديولوجيته الشعبويّة والاشتراكية . وفي الوقت نفسه ، فإنّ العسكريين ومصالح الأمن أصبَحُوا الحَايِزين الحقيقيين للسلطة من وراء الكواليس .

لَم يُؤدِ رحيل "بن بله"، في الواقع، إلى مُظاهرات شعبية كبيرة. حتى ذلك الحين أُحبِطَ العديد من الجزائريين من حقيقة أنّ مُناوَرات السياسيين قد إتّخذَت شكل المثالية النبيلة في الأيام الأولى من الاستقلال. وكان العديد من الناس على إستِعدَاد للعيش في سلام واستِقرَار، في حين بَدَا النظام الجديد المَجهُول الهوية وَاعِداً.

على الرغم من أنّه لم يَكُن مَعروفا لدى عامة الناس، كان "هواري بومدين" قائدا عَظيما، والذي نَجحَ في الارتِقَاء من وسط مُتواضع حتى تَعيينه في منصب قائد أركان الجيش الجزائري. تَعلّم فن السياسة السِرّيّة بِتوجيه من مُعلمه "عبد الحفيظ بوصوف"، عَرّاب المصالح السِرّيّة الجزائرية[11]. وَاصَل "بومدين" تَفوُّقَه على "بوصوف" وتَجاوَز كل فصيل كان مُعارضا له حتى قبل الحصول على الإستقلال. وكان مُستَغرب التكوين أكثر من غيره من مُعاصِريه.

لَم يَكُن "بومدين" كَارِزمِياً بالمعنى التقليدي للكلمة، ويُمكن أن نَقُول أنّه كان مَحبُوباً من قبل الجماهير. يَفضِل العمل في الظلام، ومُحَاط بدائرة صغيرة من المُقرّبين. في اليوم الذي أَزَال فيه "بن بله"، قرَأ بالتأكيد بيان "التصحيح الثوري"، ولكن في رسالة بثّها التلفزيون، رَأينَا مِيكرُوفوناً واحدا فقط. في البداية، تَجنّب "بومدين" فعل كل ما يُمكن أن يُذكِر بعبادة الشخصية. أولئك الذين عَرَفُوه إحتَرَمُوه لذكائه، لنزاهته الواضحة ولِحَزمِه. لكن العامة عُموما لا يُمكنهم تَكوين فكرة عن الحُكّام الجُدّد إلاّ بطريقة تَدرِيجيّة.

كان أوّل عَمَل من "بومدين" لِتَوطِيد سلطته، وهو ما يقوم به أيّ رئيس جديد. أنّه أَبعَد الكثير من المُقرّبين من "بن بله" وجَلَب عُصبَته الخاصة، المُسمّاة "عصبة وجدة"، باسم مدينة مَغربية تَقع بالقُرب من الحُدود مع الجزائر، حيث نَسَج "بومدين" والعديد من حُلفائه أوّل صِلاَتِهم. وبالتالي تَضَاءلَت أهمية جبهة التحرير الوطني. وحَافَظ "بومدين" تحت سلطته على الرئاسة ووزارة الدفاع؛ وقد تَمّ تَعزيز تنظيم الأمن العسكري، والشرطة السرّية الرَهِيبَة، لتُصبح الأداة المركزية والتي يُراقب من خلالها النظام الحياة السياسيّة.

أوّل تَحَدي ل "بومدين" قَادِم من قادة حرب العصابات البَاقين، والذين شَهِدُوا تهميشا على نَحو مُتزايد من قبل ضُباط الجيش الأكثر مهنية، الذين منهم من كان تَكوينه فرنسي ومَحسُوب كُلياً إلى فرنسا. وفي نهاية العام 1967، قَادَ العقيد "الطاهر الزبيري" حركة صغيرة ضد النظام، سُرعان ما أُخمِدَت بسُهولة عندما طلب "بومدين" من سلاح الجو، الفرع الأكثر تَطوّرا للجيش، بالتدخل. إعتِبَاراً من العام 1968، لم تَكُن ل "بومدين" سوى مُعارضة قليلة جدا داخل البلاد. فكَانت ذُروَة التجربة السلطوية على الطريقة الجزائرية.

وإلى جانب إستخدام المؤسسات الأمنية لمنع السُخط، إتّخذ "بومدين" خيارات سياسيّة، اقتصادية واجتماعية تهدف لكسب الرضا، ولدعم المواطنين العاديين، فضلا عن المعارضين المحتملين. حيث ورّثت الجزائر من فرنسا بنية تحتية متطورة إلى حدّ ما. أخذت الدولة على عاتقها مسؤولية تسيير المساكن والبيوت الفارغة، وسمحت للجزائريين باحتلالها عملياً دون مقابل. هذه الأملاك الشاغرة (العقارات الشاغرة)، كما كانت تُسمى في ذلك الوقت، أصبحت مصدراً ضخماً للزّبونية، وكانت جزءاً من العقد الإجتماعي مع الجماهير. مع مرور الوقت، تسبّبت هذه السياسة في أزمة سكن قطيعة، لئلا أحد مهتم بالاستثمار في القطاع العقاري ما دام الناس يعتقدون أنّ السكن سلعة مجانية. ولذلك، كان الناس المقيمين في الحظيرة العقارية الموجودة أكثر فأكثر عدداً. ما جعل الجزائر العاصمة واحدة من أكثر المدن المأهولة بالسكان من خلال إحصاء عدد الشاغلين لكل غرفة. كانت الإيجارات دوماً رخيصة الثمن، رغم أنّ الناس كانوا مضطّرين للنوم بالتّناوب.

التزمت الدولة أيضا بضمان التعليم والطب المجانيين للجميع. حول هذه النقطة، واجه النظام تحدياً كبيراً: في فترة ما بعد الاستقلال، هناك فقط نسبة 15٪ من السكان البالغين يعرفون القراءة والكتابة، وربّما بالفرنسية أكثر من اللغة العربية. إلاّ نسبة صغيرة من الأطفال في سِنّ التمدرس كانوا من المرتادين للمدارس. وخلال حرب الاستقلال، أضرب طلاب الجامعة عن الدراسة، وكان هناك عدد قليل جدّا من حاملي الشهادات الجامعية ليساعدوا في بناء الدولة الجديدة. وبالتالي أصبح التعليم طريق ذات أولويّة، وخصص له وبانتظام جزء كبير من ميزانية الدولة. وجاءت الصحة ربّما في الأولوية الثانية. هنا أيضا، كانت الدولة مرفقة من ضخامة المهمّة، لكنها تمكّنت من تخفيض وفيات الأطفال وتوفير البُنيات الأساسية لإقامة نظام طبي على الصعيد الوطني.

وقد كانت النتيجة الرئيسية لضمان التعليم والرعاية الطبية المجانية للجماهير أن تسارعت وتيرة الهجرة الجماعية نحو المدن حيث توجد المساكن بأسعار معقولة، المدارس، الأطباء وحتى العمل في القطاع العام. عند الاستقلال، كانت الجزائر بلد يغلب عليه الطابع الريفي؛ في وقت قصير، أصبح معظم مواطنيها حضريين.

وضع "بن بله" موضع التنفيذ تجربة العمل التطوّعي، وخاصة مع نظام التسيير الذاتي للعمال وتأميم الفلاحة. كان "بومدين" أقلّ إقتناعاً بكثير من أنّه يُمكن التعويل على عفوية الجماهير. إنّه يفضل أن تُسيطر الدولة على الاقتصاد من القمّة إلى القاعدة، إعتماداً في ذلك على احتكار الدولة لعائدات النفط من أجل توفير رأس المال للصناعات الناشئة. كمُعظم قادة ذلك الوقت، كان "بومدين" مُقتنعاً بأنّ التخطيط هو الأسلوب الأكثر فعالية لإدارة الإقتصاد.

إنّه عن طريق التحكّم في الاستثمارات المركزية، يُمكن توجيه الأموال الضئيلة للقطاعات التي يُنظر إليها على أنها الأكثر أهمية. كما يُمكن نظرياً ترشيد إعانات العُملات الأجنبية لِضمان تمويل المشاريع الصناعية الكُبرى مع تجنّب النفقات غير الضرورية في إستيراد السلع الكمالية. ينبغي على الدولة أن تُحافظ على مُستوى عال من الاستثمار ووضع حُدود للثروات الفردية المُفرطة، حتى تسُود أخلاق المُساواة. وهكذا، كادت البلاد أن تُصبح مُكتفية ذاتيا وتُنتج ما كان قد سبق واستوردته. وكان لِنمُوذج "إحلال التصنيع محلّ الواردات" ( ISI: l'Industrialisation se Substituant aux importations) العديد من الأتباع في سنوات الستينات والسبعينات(12). ولكن هذا النظام كان لديه نِقاط ضُعف وتشوّهات: إنّه فتح الباب أمام الفساد وخفّض الحافز للعمل والابتكار، هذه الحقيقة لم يفعل حِيالها أيّ شيء ما أدى بها إلى أن تتفاقمت بعد ذلك. كانت في الواقع هذه الفترة حيث كان يُنظر للاتحاد السوفيتي على أنه نموذج للتصنيع الناجح، في حين أنّ "النُمور الأسيوية" مثل كوريا الجنوبية وتايوان، لم يصدُر إزائهما أيّ إنطباع لِبدائليهما الاقتصادية المُختارة.

تمّ التعامل مع القطاع الزراعي بِوقاحة وبعدم إحترام مصالح الفلاحين الجزائريين. والمُثير للدهشة، أنّه بالنظر إلى أن مُعظم المُسيرين كانوا من سُلالة الفلاحين، إلاّ أنّه لا أحد يُريد حقاً الدفاع عن مبدأ ترك الفلاح يُمارس النشاط الأكثر فلاحا له، وهذا يعني العمل بشكل مُكثّف في الزراعات ذات المَردُودِيّة الانتاجية. وبدلاً من ذلك، حُوّلت الأراضي التي تُركت من قبل الفرنسيين ومن قبل عدد قليل من أصحاب الأراضي الجزائريين إلى مُستثمرات زراعية جماعية حيث يُملى على المُزارعين ما يجب زرعُه، وشِراء محاصيلهم بِتكلفة مُنخفضة. وكما هو متوقع، سارع هذا في الهجرة الجماعية من الريف وقلّل الانتاج الزراعي. وعلى عجل، بدأت الجزائر في استيراد كميات كبيرة من المُنتجات لِتلبية احتياجاتها الغذائية. في سنوات السبعينات، كانت واحدة من الشكاوى الرئيسية للمُواطن العادي هي نفاذ المواد الغذائية. في حين أن الغذاء المُتوفر يبع بثمن بخس، وذلك بفضل الدعم الحكومي، وكان نقص بعض المُنتجات يُمثل مُشكلة مُستمرة حتى سنوات الثمانينات.

لدينا هُنا المَلامح العامة التي يُعرف بها النظام السلطوي الكلاسيكي، والذي يدّعي نسب شرعيته إلى القِيَم الثورية، الوطنية والشعبويّة؛ يضمن مُمارسة عمله من خلال إحتكار أدوات العنف، وخاصّة الجيش، الشرطة والأمن العسكري؛ مع وُجود إتّفاق ضِمني مع الجماهير بأنّه يحكُم بإسمها، ويَنعكس ذلك من خلال ضمان الخدمات، وأيضا قدر أدنى من العدالة والإستقرار، في مُقابل السِلبِيّة مع كل ما له علاقة بالشأن السياسي. كما هو الحال في مصر، ولكن بطريقة مُختلفة عن سورية، ويفضل النظام الجزائري الحضريين، ما يَعكِس "التحيّز الحضري"(13). وبدا النظام يَعمل، لبعض الوقت، بِشكل جيد إلى حدّ ما.

في الواقع كانت سنوات السبعينات إيجابية لنظام "بومدين". شخصياً، ثِقَتُه بنفسه في تزايد مُستمر، والحال نفسه ينطبق على الإحترام الذي محَضَتْه إيّاه الناس. كان ديكتاتوريا، ولكن ليس من النوع الذي يَسفِك الدماء دون مُبرر. ويُمكن تشبيهُه أكثر ب "حافظ الأسد" السوري منه ب "صدام حسين" العراقي. إرتفعت أسعار النفط ابتداءً من العام 1973. ومن ثمّة كان للنظام الفُرصة في مُتابعة سياسته الطمُوحة من "الصناعات المصنّعة". وبِحسب هذا المفهوم تخلق الصناعات الكبيرة سُوقاً للصناعات الخفيفة (ولكن من يشتري مُنتجات كل هذه المصانع؟ كان هذا لُغزاً). ومع ذلك، كان المال مُتاحاً لجعل كل شيء يَعمل، ويُمكن قياس التقدم الاجتماعي بطُرق ملمُوسة: المدارس فُجّرت في كل مكان، والحياة تحسّنت للناس العاديين. ويُعوّل النظام على عائدات النفط والغاز لتغطية نفقاته، ما لم يَضطرّه للجُوء إلى الضرائب المباشرة. وهو ما كان مُعاكِس لمنطق فرض الضرائب، ما أُعتُبِر بالطبع "عدم تمثيل"[14]. والتزَم "بومدين" ويُبطء بتنصيب المؤسسات السياسيّة.

حالَما وصل إلى السلطة في 19 يونيو/حزيران 1965، ألغى "بومدين" دستور 1963 واستعَاض عنه بمجلس الثورة، الذي مارَس السلطة العُليا حتى إنشاء مُؤسسات جديدة. وفي المُمارَسة العَمَليّة، "بومدين" من كان يُمثِل السلطة العليا في هياكل السلطة الجديدة. وعَمِل بشكل مُنهجي لِتغيير طبيعة النظام السياسي دون إنتاج صيغة شرعية جديدة. بطَريقة ما، إلتزَم في البداية بوضع موضع التنفيذ هياكل جديدة ليتم منحها في مرحلة ثانية الوضع القانوني.

رِيبَة "بومدين" تُجاه السياسة يُمكن أن نُلاحظ في قراره لبدء تغييرات على المستويين، المحلي والولائي. ولأنّه وَفِيّ لخياراته الشعبويّة، سَيَبدأ في عملية تغيير داخل هذه المؤسسات الأكثر قُربا إلى الشعب. وفي هذا الصدد تمّ إيلاَج المُنافسة المحدودة بشأن تعيينات المجالس المُنتخبة، مما يُعطي انطباعاً بالتعددية داخل الحزب الواحد. غير أنّ السلطة تُمارس من القِمّة إلى القاعدة. وكذلك صُغِرت المؤسسات المحلية إلى مُجرد جهاز في الآلة الإدارية. ما يُسهل استخدامه لأغراض الزَبُونِيّة، دون السّماح حقاً للتمثيل السياسي الحقيقي.

قوّى "بومدين" أكثر قليلا سلطة النظام عندما بَاشر وَضع الصناعة والفلاحة تحت سيطرة الدولة. إنّ مُباشرة التأميمات في وقت مُبكر في بدايات سنوات السبعينات، جَعَل من الدولة المَالك للجُزء الأكبر من الإقتصاد، وبالتالي تدشين عصر رأسمالية الدولة. وهكذا إذاً وبعد أن وَضعَ تحت سَيطرته البيروقراطية، الإدارة المحلية والإقتصاد، سَعَى "بومدين" إلى مُحاولة تقييد رُدُود فعل سُلطته بمُوجب القانون.

في الذكرى العاشرة لتوليه السلطة، أعلَن عن نشره لمشروع ميثاق جديد، والذي سَيَعقُبه دستور جديد. ودَعَا العامة، من خلال الجمعيات الكثيرة، لِمُناقشة مشروع الميثاق. ورغم أنّ هذه

المبادرة كانت مفروضة من فوق، ومع ذلك لا يُمكن أن نشك في صدق هذه المناقشات، وخاصّة حول العناصر الأساسية للميثاق. في الأشهر التي تلت ذلك، كانت واحدة من القضايا الهامة في النقاش تتعلّق بما إذا كان من المناسب الإعلان من عدمه عن أنّ الإشتراكية تُمثل المصفوفة الأيديولوجية للجزائر، أو ما إذا كان بالإمكان الإصرار أكثر على الإسلام. ولكن عندما أعتُمِدَ أخيرا الميثاق وقدّم للاستفتاء الشعبي، سادَ الخيار الإشتراكي.

هذا لا يعني إطلاقاً أنّ الإسلام تمّ تهميشه من قبل "بومدين"، بقيّ دين الدولة، ولكن من دون أن يُصبح مصدرا لجميع التشريعات. وبدت الدولة، في توجّهاتها الثقافية الأساسية، بأنّها عربية وإسلامية، ولكن في الواقع هي علمانية واشتراكية في معظمها. ومع ذلك، كانت الإشتراكية الجزائرية لا تُشبه تلك الموجودة في العالم الشيوعي. ولم تنخرط الجزائر تماما في منطق الصراع الطبقي. في الواقع، أعتُبر النظام بأنّه يُمثل الشعب ككل، وليس الطبقة العاملة الثورية.

في الواقع، تتّسم إشتراكية "بومدين" عن ميل قويّ للتوجه التكنوقراطي. وقد تسارعت وتيرة أهداف التنمية، إنتشار قاعدة صناعية قويّة والحفاظ على شبكة أمنية قابلة للاستمرار لكسب رضا الشعب، وفي الوقت الذي وضعت فيه الدولة أسس المجتمع الحديث. قدّم القليل من الجهد لتعبئة الجماهير، لإنشاء الصناعات التي تستوعب أكبر قوّة عاملة أو لتطوير الشركات. وكشف تعاملنا مع الجماهير كمُراقبين لها بأنّها تنتظر بسلبيّة الفوائد المتأتية من هذه التجربة الإجتماعية والإقتصادية التي كانت تُدار بيروقراطياً وتُنفذ المشاريع بنيابة عنها (أي الجماهير).

بعد فترة وجيزة من تبني الميثاق الوطني عن طريق الاستفتاء، تمّ تقديم دستور جديد للاستفتاء عليه في نوفمبر/تشرين الثاني عام 1976. يُكرّس هذا الدستور مبدأ الحزب الواحد، وهو جبهة التحرير الوطني، التي ستقوم باختيار المرشّح للرئاسة والذي يحوز، نظرياً كل السُلطات. وإنْ كان من المتوقع انتخاب جمعية وطنية (مجلس تأسيسي)، بعد أنْ تمّ حلّ الأولى في العام 1965، إلاّ أنّه سيُمنح لها القليل من السُلطات. في الواقع، كان الرئيس قادراً على اقتراح القوانين والحكم عن طريق المراسيم. وعلى الرغم من إستطرادي، فإنّ الدستور المجسّد من قبل النظام جاء تماما مثل ما رسمه "بومدين"، حيث تمّ تعريف الاشتراكية باعتبارها التوجّه الأساسي للدولة وأُعلِن الإسلام دين الدولة. إذ لا تحتوي هذه الوثيقة على الكثير من المفاجآت. وشهدت سنة 1977 انتخابات المجلس الشعبي الوطني، مع نظام منافسة محدودة داخل الحزب لأجل كسب المقاعد. وبشكل عام، سيلعب هذا المجلس دورا بسيطا. كما شكّل الرئيس الحكومة، واحتفظ لنفسه بالقوّة الرهيبة وهي وزارة الدفاع.

ومع ذلك، وعلى الرغم من تركيز السلطة في يديه، كما وردت في الدستور الجديد، جابه "بومدين" المعارضة التي تقع على طرفيّ المجال السياسي. على جانب، كان هناك "الثقافويين"، الذين رأوا في الاشتراكية تهديدا للطابع الإسلامي الجزائري. البعض منهم ببساطة من ذوي الثقافة

المحافظة، والرافضين للتغريب. وآخرون كانوا كبار مُلاك الأراضي الذين تمسّكوا بالإسلام كوسيلة لحماية حُقوق الملكية الخاصة، وعارضُوا مُصادرة أراضيهم من قبل الدولة.

ردّ "بومدين" على التحدي الإسلامي عن طريق القمع، وعدم السّماح للجماعات الإسلامية بالعمل بطريقة مُستقلة، ووضع أجندة إسلامية تحت سُلطته. ومن بين ما فعله أيضا نذكر على سبيل المثال، أنّه فرض التعريب السريع في التعليم، وهو ما كان يُشكل مطالبات نموذجيّة لهذه الجماعات الإسلامية. وفي أواخر سنوات السبعينات، تمّ تعريب أكبر جُزء من النظام التعليمي، باستثناء بعض الكُليات الجامعية، كالطب أو التكنولوجيا، حيث لا تزال الفرنسية لغة التعليم فيها.

حاول "بومدين" أيضاً في معارضته للإسلاميين خلق نوع من الإسلام يكون تحت سيطرة الدولة. على سبيل المثال، موّلت الدولة بناء العديد من المساجد، وتحمّلت تكاليف تكوين العديد من الأئمّة الذين عهدت إليهم بمهمة تسيير هذه المساجد[15].

على اليسار، يُوجد "الإشتراكيون العلميون" الذين إنتقدوا بدورهم "بومدين" لوضعه المفرط للسلطة في أيدي الجيش، وهم لا يعتقدون في الحاجة إلى إنشاء حزب من مناضلي النُخبة، وبعد أن سُمح لهم بتشكيل "طبقة جديدة"، أُعطي بالمقابل مجال كبير جداً للتعبير الديني في الشؤون السياسيّة. ومثل العديد من قادة زمانه في الشرق الأوسط، مال "بومدين" يلعب لُعبة الإسلاميين ضدّ اليساريين، وشجّع في بعض الأحيان الأوّل وفي أحيان أخرى الثاني. وفي أواخر حُكمه، إعتمد على اليسار أكثر من الإسلاميين.

أمّا الجسم الإجتماعي الذي كان يناضل للعيش مع نظام "بومدين"، فكانت الطبقة المتوسطة الناشئة، الصغيرة الحجم، ولكن ذات التنظيم الجيّد. وكان للجزائر في الواقع حصّتها من المحامين، الأطباء، الكتّاب، المقاولين الصغار وغيرهم، ممّن بدأ بالتمتع ببعض الثراء، لكنها عاشت من سوء القيود العديدة على الحرّيات، البيروقراطية الثقيلة، الامتعاض من الأمن العسكري المكروه والنقص المتكرر في السلع الواسعة الاستهلاك. وفي أواخر سنوات السبعينات، كثيراً ما كان يتردّد بأنّ الجزائريين يمتلكون المال، ولكن لا يشترون شيئاً. في حين كان المغاربة يمتلكون أقلّ، ولكن أسواقهم كانت مُمتلئة. وإذا كان شدّ الحزام دليل على الوطنية في السنوات الأولى من الاستقلال، لكن مع إقتراب الذكرى السنوية الخامسة لهذا الإستقلال، لا يزال الحرمان مصدراً للشكاوي المتكررة.

وفي ذُرْوَة قُوَّته ، وبينما يُمكن الشُعور بالضُغوط المُمارسة عليه للدفع باتجاه التغيير ، لم يَظهَر "بومدين" أمام العامة مُنذ سبتمبر 1978 . بسبب إصَابته بمرض غامض . أرْجَعَته بعض الشائعات إلى التَسَمم . ونُقِل على وَجْه السُرعة إلى موسكو لِتَلَقي العلاج . أعِيد في وقت لاَحِق إلى الجزائر ، وفُحِص من خلال مجموعة من الأطباء الجزائريين والأجانب ، الذين حَاوَلوا تشخيص مَرَضِه . واسْتُنتِج أنّه أصِيب بنوع نَادر جداً من السرطان ، مما أدّى إلى وَفاته في ديسمبر/كانون الأول من ذلك العام . لم يَكن أبداً شخصية شعبية واسعة النطاق ، ولكن كان يَحظَى بالاحترام . شَكَّلت الحُشود طَوقاً على طُول الشوارع أثناء جَنازته ، وبَدَا عليهم شُعور عام بالفَزَع من المستقبل . كَون "بومدين" جَلَبَ الاستقرار إلى هذا البلد الذي عَرَفَ العُنف السياسي كثيراً .

خلال الشُهور العديدة التي أعقَبت مَرَضَه ، حَاوَلَت الدَائرة الصغيرة المُحيطة به ضَمان انتقال سَلِس للسلطة ، وكان المُتَنافِسان الرئيسيان على هذه السلطة ، هما : "عبد العزيز بوتفليقة" ، وزيره للشؤون الخارجية وصَديقه المُقرَّب ، و"محمد الصالح يَحيَاوي" ، مُنسق جبهة التحرير الوطني ذُو الإتجاه اليساري . ومع ذلك ، فإنّ الرجال الأساسيين في الجيش والأجهزة الأمنية فَضلّوا الشخصية الأقرب إليهم ، وهو "الشادلي بن جديد" ، ضابط سامي كان على رأس الناحية العسكرية الثانية (وهران)[16] . وبِمُقارَنَتِه مع "بوتفليقة" و"يحياوي" ، "الشادلي" (كما سوف يُطلَق عليه طِوال الوقت تَقريبا) كان شَخصاً ضَعيفاً بِتَجربة سياسيّة مُتَواضِعَة . وهذا هو السبب الذي جَعَل من الذين أدَارُوا الإنتقال يَختَارُونَه .

في العام 1979 ، بَدَأ عهد "الشادلي" مع وُجُود علامات تُشير إلى الإستمرارية . ومع ذلك ، وبعد فترة وجيزة ، لُوحِظ أنّ الأمُور بَدَأت تَتَغيّر في الجزائر . ولكن أثبتت الأحداث السابقة واللاحقة ، أنّ جزائر الإستقلال لا تختلف كثيراً عن الجزائر المستعمرة أو الجزائر الثائرة على الأقل على مستوى المسار السياسي الجزائري . حيث أنّ كل شيء تقريبا تغيّر في الجزائر ما عدا المُمَارسات السياسية التي لم تكن أبدا مُبتكرة بقدر ما هي سليلة المرحلتين السابقتين .

---

## هوامش

**1)** يُمكن العُثور على وصف أَسِير للجزائر الفرنسية أدْلَى به واحد من أعظم الروائيين الفرنسيين من أصل جزائري . أنظر :

Albert Camus, *The First Man*, (New York: Knopf, 1995) ; et *L'Etranger*, (Paris: Gallimard, 1970).

**2)** Bruno Etienne, *Abdelkader: isthme des isthmus*, (Paris : Editions Hachette, 1994) ; et *Le magazine de Libération*, (25- 31 mars 1995), p.15.

ذُكر "إتْيان" (Etienne) أن عدد الجزائريين الذين رَافقوا "عبد القادر" إلى المَنفى يَصِل إلى 15 000 .

**3)** Jules Cambon, as quoted in Roger Murray and Tom Weingraf, « The Algerian Revolution », *New Left Review*, n° 22 (Decembre 1963), p.23.

**4)** Voir Robert A. Dahl, *Polyarchy: Participation and Opposition*, (Yale: Yale University Press, 1971), pp.91- 105.

حَول فوائد تضخيم النزاع قبل توسيع المشاركة . ولكن أنظر أيضا نقد

Robert H. Dix, « History and Democracy Revisited », in *Comparative Politics* (Octobre 1994), pp.91- 105.

الذي أشَار إلى أنّه قبل أيّ انفتاح للنظام . يُمكن أن تُؤدي الاتفاقيات نفس الوظيفة والتّعوُّد على ذلك لفترة طويلة .

**5)** Voir Kateb Yacine, *Nedjma*, (Virginia: University Press of Virginia, 1991).

تَتَناول هذه الرواية بدايات بيئة العُنف في الجزائر . فحين انتهت الحرب العالمية الثانية . قَمَعَ الفرنسيين بالقُوّة مُظاهرة إمتَدّت على نطاق واسع في جميع أنحاء مدينة سطيف . وقد أدّت هذه الأحداث إلى تَطَرُّف مَوقف جيل كامل من الجزائريين . أنظر :

Mohamed Harbi, *Le FLN, Mirage et réalité : des origines à la prise du pouvoir (1945- 1962),* (Paris : Editions J.A, 1980), pp.28- 30.

**6)** Lahouari Addi, *L'Algérie et la démocratie : pouvoir et crise du politique dans l'Algérie contemporaine*, (Paris : Editions La Découverte, 1994), pp.15- 33.

**7)** Redha Malek, *L'Algérie à Evian : histoire des négociations secrètes 1956- 1962*, (Paris : Editions du Seuil, 1995).

**8)** William B. Quandt, *Revolution and Political Leadership : Algeria, 1954- 1968*, (MIT Presse, 1969), pp.164- 178.

**9)** Quandt, *Revolution and Political Leadership*, pp.148- 174; et Yves Courrière, *Les Fils de la Toussaint*, (Paris : Fayard, 1968) ; et Harbi, *Le FLN : Mirage et réalité*, pp.195- 223.

**10)** بَقِيَ "بن بلة" في السجن حتى أوائل سنوات الثمانينات . ومع ذلك . يُمكن مُلاحظة شيئ نَادِر في العالم العربي . وهو أنّه لا يَزال يَعيش على أرض الجزائر رؤساؤها السابقين . وليس فقط في حالة النّفي . لا يَزال جميع الرؤساء السابقين للجزائر . في أواخر سنوات التسعينات . كبن بلة . الشادلي وعلي كافي يعيشون في الجزائر .

**11)** Addi, *L'Algérie et la démocratie*, pp.41- 46.

**12)** John Waterbury, *Expoded to Innumerable Delusions : Public Entreprise and State Power in Egypt, India, Mexico, and Turkey*, (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), pp.24- 25.

**13)** Voir Yahya M. Sadowski, *Political Vegetables ? Businessman and Bureaucrat in the Development of Egyptian Agriculture*, (Virginia: Brookings Institution, 1991), pp.67- 80.

بشأن "التحيّز الحضري" : أنظر أيضا :

Iliya F. Harik, *Economic Policy Reform in Egypt*, (Florida: University Press Florida, 1997).

وفي الحالة السورية ، أنظر :

David Waldner, *State Buildings and Late Developments*, (Cornell: Cornell University Press, à paraitre).

**14)** Giacomo Luciani, « The Oil Rent, Fiscal Crisis of the State and Démocratization » in Ghassan Salamé, *Democracy Without Democrats ? The Renewal of Politics in the Muslim World*, (London: I.B Tauris Publishers, 1994), pp.130- 155.

**15)** Ahmed Rouadjia, *Les frères et la mosque: enquêtes sur le movement islamiste en Algérie*, (Paris : Editions Karthala, 1990), pp.77- 109.

**16)** Voir Yahya Rahal, *Histoire de pouvoir : un général témoigne*, (Alger : Casbah Editions, 1997), pp.66- 72.

رؤية من الداخل حول الصراعات على الخلافة داخل الحزب .